مختصر قصة التتار الجزء الثالث

الكاتب: موقع قصة الإسلام

تاريخ أبحاث

الاجتياح التتري الثاني

أتت سنة 628هـ/ 1230م تحمل هجمة تترية بشعة جديدة على الأمة الإسلامية؛ فقد تولى قيادة التتار الزعيم الجديد (أوكيتاي)، وأخذ ينظِّم أمور مملكته في معقلها بمنغوليا والصين، وذلك من سنة 624 إلى سنة 627هـ (من 1226 إلى 1229م) [1].

وبعد أن تم له ذلك بدأ يفكر من جديد في اجتياح العالم الإسلامي، واستكمال الحروب بعد ذلك في منطقة روسيا التي هُزمت فيها قبل ذلك الجيوش التترية، ومحاولة استكمال الفتوح في داخل أوربا، كلف الخاقان الكبير (أوكيتاي) أحد أبرز قادته بالقيام بمهمة الاجتياح التتري الثاني، وهو القائد (شورماجان) الذي جمع جيشًا هائلاً من التَّتَر، وتقدَّم صوب العالم الإسلامي من جديد. لما جاءت جيوش التتار بقيادة شورماجان اجتاحت البلاد الإسلامية اجتياحًا بشعًا، وقد وصل إلى علمها أن جلال الدين قد ضعف جدًّا في هذه السنة لحدوث هزيمتين له من الأشرف بن العادل حاكم ديار الجزيرة في شمال العراق وجنوب تركيا، وكانت طائفة الإسماعيلية -وهي من طوائف الشيعة في غرب إقليم فارس- قد راسلت التتار وأخبرتهم بضعف جلال الدين؛ وذلك لأنه كانت بينهم وبين جلال الدين حروب، فأرادوا الانتقام منه بإخبار التتار بوقت ضعفه[2].

وجاءت جحافل التتار ودمرت في طريقها كل ما يمكن تدميره، وأكلت الأخضر واليابس، وكان لها هدف رئيسي هو الإمساك بجلال الدين بن خوارزم، والتقى بهم جلال الدين في موقعة انهزم فيها شرَّ هزيمة، وأسرع بالفرار من أمام التتار وقد تمزَّق جيشه، وأخذ يتنقل بمفرده بين القرى فرارًا من التتار، واختفى ذكره من البلاد شهورًا متصلة؛ فلا يعرف أحد إن كان قُتل أو اختفى أو هرب إلى بلد آخر، حتى قابله أحد فلاحي الأكراد، وعرفه، فخدعه وأطعمه حتى نام، وهنا قام الفلاح وقتل جلال الدين بالفأس، وأخذ ما عليه من الجواهر وسلمها إلى

https://murabet.com

شهاب الدين غازي صاحب هذه المنطقة، والذي طالما ذاق من ويلات جلال الدين[3].

هكذا كانت نهاية الظالمين، ونهاية المفرِّطين، ونهاية الذين تملكوا رقاب العباد فما رعوا لله حقًّا، وما رعوا للرعية حقًّا، وما رعوا للرحم حقًّا، وعاشوا لأنفسهم فقط.

ونتيجة سوء التربية، وغياب الفهم الصحيح للإسلام، والتمسك بالدنيا إلى أقصى درجة، وعدم وضوح الرؤية عند الناس؛ فقد دبت الهزيمة النفسية الرهيبة في داخل قلوب المسلمين، فما استطاعوا أن يحملوا سيفًا، ولا أن يركبوا خيلاً، بل ذهب عن أذهانهم أصلاً التفكير في المقاومة، وهذا -لا شك- سهَّل جدًّا من مهمة التتار الذين وجدوا أبوابًا مفتوحة، ورقابًا جاهزة للقطع!!

يروي ابن الأثير في الكامل في أحداث السنة الثامنة والعشرين بعد الستمائة بعض الصور التي استمع إليها بإذنه من بعض الذين كُتبت لهم نجاة أثناء حملات التتار على المدن الإسلامية فيقول: كان التتري يدخل القرية بمفرده، وبها الجمع الكثير من الناس فيبدأ بقتلهم واحدًا تلو الآخر، ولا يتجاسر أحد المسلمين أن يرفع يده نحو الفارس بهجوم أو بدفاع[4]!!

وقال أيضًا: "ولقد بلغني أن إنسانًا منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح؛ فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتريُّ فأحضر سيفًا وقتله به"[5]!!

لقد ضم شورماجان شمال إقليم فارس (شمال إيران حاليًا) إلى الإمبراطورية التترية، وذلك في سنة 629هـ/ 1231م، ثم زحف بعد ذلك على إقليم أذربيجان فضمه إلى أملاكه، وبتلك الانتصارات التترية -إلى جانب موت جلال الدين على النحو الذي مرَّ بنا- اكتمل سقوط إقليم فارس كله في يد التتار باستثناء الشريط الغربي الضيق الذي تسيطر عليه طائفة الإسماعيلية الشيعية.

ثم بدا لشورماجان أن يستقر في هذه المناطق ولا يكمل زحفه إلا بعد ترسيخ قدمه، وتثبيت جيشه، ودراسة المناطق المحيطة، وما إلى ذلك من أمور تدعم السلطان التتري في هذه المنطقة. ظل شورماجان يرسخ حكم التتر في هذه المناطق مدةَ خمس سنوات كاملة، من سنة 629هـ/ 1231م إلى سنة 634هـ/

1236م، وأثناء هذه السنوات الخمس لم تخرج عليه ثورة مسلمة!! ولم يتحرك لقتاله جيش مسلم!! مع أن جيوش المسلمين تملأ المناطق المجاورة لفارس وأذربيجان، وذلك في العراق والموصل ومصر والحجاز وغيرها!!

بعد هذه السنوات الخمس في إقليمي فارس وأذربيجان بدأ شورماجان في سنة 634هـ/ 1236م في الالتفاف حول بحر قزوين من ناحية الغرب لينطلق شمالاً لاستكمال فتوحاته، وبسرعة استطاع أن يسيطر على أقاليم أرمينيا وجورجيا (مملكة الكرج النصرانية) والشيشان وداغستان. ثم بدأ جيش آخر من جيوش التتار بزعامة (باتو بن جاجي) في قيادة الحملات التترية شمال بحر قزوين، وذلك في نفس السنة 634هـ/ 1236م، وأخذ في قمع القبائل التركية النازلة في حوض نهر الفولجا، ثم زحف بعد ذلك على البلاد الروسية الواسعة، وذلك في سنة 635هـ/ 1237م.

وبدأ هذا الجيش التتري الرهيب يقوم بالمذابح الشنيعة في روسيا النصرانية، فاستولى على العديد من المدن الروسية، وذلك في سنتي 635 و636 هجرية، سقطت تحت أقدام هذا الجيش مدن (ريدان)، ثم (كولومونا) بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة (فلاديمير) الكبيرة بعد صمود ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت (سوذال)، ثم توجهت الجيوش التترية إلى أعظم مدن روسيا (موسكو) فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن (يوربيف) و(جاليش) و(بريسلاف) و(روستوف) و(ياروسلاف)، ثم سقطت مدينة (تورزوك)، وبذلك احتل التتار دولة روسيا بكاملها!! ومع أن مساحة روسيا سبعة عشر مليون كيلو متر مربعًا، إلى جانب أعداد سكانها الهائلة وأحوالها المناخية القاسية إلا أن التتار احتلوها بالكامل في عامين فقط!!

وفي سنة 638هـ/ 1240م تحركت جيوش التتار غربًا بقيادة (باتو بن جاجي) فاحتلوا دولة أوكرانيا بكاملها (ومساحتها ستمائة ألف كيلو متر مربع)، واجتاحوا العاصمة (كييف)، ودمروا كنوزها العظيمة، ولقي أكثر سكانها مصرعهم.

وفي سنة 639هـ/ 1241م زحفت فرقة من قوات التتار بقيادة (بايدر) إلى الشمال الغربي من دولة أوكرانيا فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من

المدن البولندية، فلم يجد الملك البولندي إلا أن يستعين بالفرسان الألمان القريبين منه (ألمانيا تقع في غرب بولندا مباشرة)، فجاء الأمير هنري دوق (سيليزيا الألمانية)، واشترك مع ملك بولندا في تكوين جيش واحد لملاقاة التتار، غير أن هذا الجيش لقي هزيمة ساحقة على أيدي الجيوش التترية بقيادة (بايدر)؛ وبذلك سقطت بولندا أيضًا تحت حكم التتار!

وفي هذه الأثناء وفي نفس السنة 639هـ/ 1241م ترك (باتو) قائد التتار المتمركز في أوكرانيا فرقة تترية في هذه المنطقة، واتجه بجيشه الرئيسي غربًا إلى مملكة المجر حيث التقى مع ملك المجر في موقعة رهيبة دمر على أثرها الجيش المجري بكامله، وبذلك احتُلت المجر أيضًا!

ثم نزل (بايدر) من بولندا في اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش التتار بقيادة باتو في المجر، وفي طريقه للنزول اجتاح دولة سلوفاكيا وضمها بكاملها إلى دولة التتار!! ثم تدفقت الجيوش التترية إلى دولة كرواتيا فاجتاحتها!!

وبذلك وصلت الجيوش التترية إلى سواحل البحر الأدرياتي (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا)، وبذلك يكون التتار قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوربا تقريبًا!!

وكان من الممكن أن تستمر الفتوحات التترية في أوربا -وقد وصلت حدود دولة التتار إلى دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا- لولا أن الخاقان الكبير ملك التتار (أوكيتاي) مات في هذا العام 639هـ/ 1241م فاضطر الأمير (باتو بن جاجي) أن يوقف الحملات، ويستخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة، ويعود إلى (قراقورم) عاصمة التتار في منغوليا للمشاركة في اختيار الخاقان التتري الجديد[6].

أخذت عقائد الجيش التتري في التغيُّر بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبيًّا في البلاط المغولي، وقد ساعد هذا على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.

بعد تولية كيوك بن أوكيتاي خاقان التتار الجديد قرَّر أن يوقف الحملات التوسعية، ويتفرغ لتثبيت الأقدام في أجزاء مملكته المختلفة، وقد ظلَّ كيوك

يحكم من سنة 639هـ/ 1241م إلى سنة 646هـ/ 1248م، وفي هذه السنوات السبع لم يدخل التتار بلادًا جديدة إلا فيما ندر، وكانت فترة هدوء نسبي في المناطق المجاورة لمملكة التتار، وإن كانت المناطق المنكوبة بالتتار ما زالت تعاني من ظلم وبشاعة الاحتلال التتري.

وفي سنة 640هـ/ 1242م تُوُفِّي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولَّى الخلافة ابنه المستعصم بالله، وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عامًا، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن، وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير إلا أنه لم يكن يفقه كثيرًا -ولا قليلاً!- في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال؛ فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه، فهو آخر الخلفاء العباسيين، وهو الذي ستسقط بغداد في عهده بعد ذلك.

في هذه الأوقات كان لويس التاسع ملك فرنسا يجهز لحملته الصليبية على مصر، والتي عُرِفت في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة، وكان يجمع جيوشه في جزيرة قبرص، وذلك في سنة 646هـ/ 1248م، وقد رأى لويس التاسع أن الأمل لم ينقطع في إمكانية التحالف مع التتار ضد المسلمين؛ فأرسل سفارة صليبية ثالثة من قبرص إلى منغوليا لطلب التعاون من كيوك في هذه الحملة، وزوَّد السفارة بالهدايا الثمينة، والذخائر النفيسة، لكن عندما وصلت هذه السفارة إلى (قراقورم) العاصمة التترية في منغوليا فوجئت بوفاة خاقان التتار (كيوك)، ولم يكن كيوك قد ترك إلا أولادًا ثلاثة صغارًا لا يصلحون للحكم في هذه السن الصغيرة، فتولَّت أرملة كيوك -وكانت تُدعَى أوغول قيميش- الوصاية عليهم، ومن ثَمَّ تولت حكم التتار، وذلك ابتداءً من سنة 646هـ/ 1248م، ولمدة ثلاث سنوات.

حاول لويس التاسع الاتصال بالتتار، والتنسيق معهم للهجوم على المسلمين؛ فاعتذرت أرملة كيوك؛ لانشغالها بالصراعات على الحكم، لكنَّ لويس التاسع أصرَّ على القيام بحملته حتى مع عدم اشتراك التتار، وتوجه بالفعل إلى دمياط واحتلها، لكن انتفاضة المماليك في نهاية عصر الأيوبيين، تمكنت من هزيمة لويس التاسع وحملته، بل وأسر لويس نفسه بعد موقعة المنصورة الشهيرة في التاريخ.

https://nurabet.com

في ذات الوقت اجتمع المجلس الوطني للتتار والمسمَّى (بالقوريلتاي)، وذلك في سنة 649هـ/ 1251م، وقرروا اختيار خاقان جديد للتتار، وبالفعل اختاروا (منكوخان) ليكون زعيمًا جديدًا للتتار.
وكان اختيار منكوخان زعيمًا لمملكة التتار بداية تحول كبير في سياسة التتار، وبداية تغيير جذري في المناطق المحيطة بالتتار، فقد كانت لديه سياسة توسعية شبيهة بسياسة جنكيزخان المؤسِّس الأول لدولة التتار، وشبيهة أيضًا بسياسة أوكيتاي الذي فُتحت أوربا في عهده؛ ومن ثَمَّ بدأ منكوخان يفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين[7].

الاجتياح التتري الثالث

منذ تولى منكوخان زعامة دولة التتار وهو يفكر في إسقاط الخلافة العباسية واجتياح العراق، ثم بعد ذلك اجتياح الشام ومصر، وكان منكوخان قائدًا قويًّا حازمًا، لكن ساعده بصورة أكبر إخوته الثلاثة الذين كانوا عونًا له في تحقيق أحلامه، فأحد إخوته وهو (أرتق بوقا) ظلَّ معه في (قراقورم) العاصمة؛ ليدير معه الإمبراطورية الواسعة، وأما الأخ الثاني (قبيلاي) فقد أوكل إليه إدارة الأقاليم الشرقية التي تضم الصين وكوريا وما حولها من أقاليم، وأما الأخ الثالث (هولاكو) فقد أصبح مسئولاً عن إدارة إقليم فارس وما حوله؛ مما يجعله في مواجهة الخلافة الإسلامية مباشرة، ولا شك أن الجميع قد سمع عن اسم هولاكو قبل ذلك!!
ومنذ تسلَّم هولاكو قيادة قطاع فارس وهو يُعِدُّ العُدَّة لإسقاط الخلافة العباسية. والحق أن إعداده كان باهرًا عظيمًا، بقدر ما كان ردُّ فعل المسلمين لهذا الإعداد تافهًا حقيرًا، وإذا كان الوضع كذلك فلا بد أن ينتصر هولاكو على مناوئيه وإن كانوا مسلمين؛ ذلك لأن لله U سننًا لا تتبدل ولا تتغير، والذي يأخذ بأسباب النصر من أهل الدنيا يعطيه الله U وإن كان كافرًا، والذي لا يُعِدُّ نفسه ليوم اللقاء لا بد أن ينهزم وإن كان مسلمًا، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ} [هود: 15].

https://murabet.com

وهكذا أراد هولاكو حياته الدنيا، وأعدَّ لها إعدادًا جيدًا، فأخذ نصيبه من الدنيا، ولم يبخس منه شيئًا.

لقد بدأ هولاكو عمله في سنة 649هـ/ 1251م بحميَّة شديدة وسرعة فائقة، ومع ذلك فإنه كان يتحلى بالصبر والأناة والإتقان في كل خطوة؛ فقد ظلَّ يُعِدُّ العدة في صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة من سنة 649هـ/ 1251م إلى سنة 654هـ/ 1256م، وهو يعمل في نشاط لكي يكون جاهزًا تمامًا.

لقد عمل هولاكو في أربعة محاور رئيسية، وبصورة متناسقة:

المحور الأول: الاهتمام بالبنية التحتية، وتجهيز مسرح العمليات، وضمان استمرارية وسيولة الإمداد والتموين؛ فقام بإصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، وأقام الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار التي تعترض طريق الجيوش، كما جهَّز مجموعة ضخمة من الناقلات العملاقة صنعت خِصِّيصَى لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد.

المحور الثاني: الاستعداد السياسي والدبلوماسي؛ فقد بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية مع بعض الأطراف وموازين القوى المختلفة؛ وذلك لضمان نجاح المهمة الكبيرة، وهو تغيُّر كبير في السياسة التترية التي ما عرفت قبل ذلك تحالفًا ولا دبلوماسية.

وقد وصل هولاكو في تحالفاته إلى كبير الوزراء في الخلافة العباسية، وهو الشخصية الثانية في الدولة بعد الخليفة، وهو الوزير (مؤيد الدين العلقمي الشيعي)!!

كان مؤيد الدين رجلاً فاسدًا خبيثًا رافضيًّا (يرفض خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما)، وكان شديد التشيُّع، كارهًا للسُّنَّة ولأهل السنة. ومن العجب أنه يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة، وفي دولة سنية تحمل اسم الخلافة!

والأسوأ من ذلك أن هذا الوزير لم يبق في مكانه شهرًا أو شهرين أو عامًا أو عامين، وإنما بقي في مكانه أربع عشرة سنة كاملة، من سنة 642هـ/ 1244م إلى سنة 656هـ/ 1258م عندما سقطت بغداد، وإذا مرت كل هذه الفترة دون أن يدرك الخليفة خطورته، فلا شك أن هذا دليل واضح على خِفَّة عقل

الخليفة.
لقد اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، مستغلاً فساده وتشيُّعه وكراهيته للسنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التي يقدمها للخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك في مقابل أن يكون له شأن في (مجلس الحكم) الذي سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة، والتخلص من الخليفة. وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل ما يكون، وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة، وعلى الأحداث التي مرت بالمنطقة في تلك الأوقات.
المحور الثالث: الحرب النفسية على المسلمين؛ إذ كانت لهولاكو أكثر من وسيلة لشنِّ هذه الحرب المهولة على المسلمين، ومن هذه الوسائل مثلاً: القيام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق، والتي لم يكن لها غرض إلا بث الرعب، وإحياء ذكرى الحملات التترية الرهيبة التي وقعت في السابق في عهود جنكيزخان وأوكيتاي.
المحور الرابع: إضعاف جيوش الخلافة العباسية؛ فقد عمد هولاكو إلى أن يطلب من الوزير الفاسد مؤيد الدين العلقمي أن يقنع الخليفة العباسي المستعصم بالله أن يخفض من ميزانية الجيش، وأن يقلِّل من أعداد الجنود، وألاَّ يصرف أذهان الدولة إلى قضايا التسليح والحرب، بل يُحوِّل الجيش إلى الأعمال المدنية من زراعة وصناعة وغيرها. والجميع يرى اليوم اشتغال الجند في بعض بلاد المسلمين بزراعة الخضراوات، وبناء الجسور، وأعمال المخابز والنوادي!! دون كبير اهتمام بالتدريب والقتال والسلاح والجهاد!! وقد قام بذلك فعلاً الوزير العميل مؤيد الدين العلقمي، وهذا لا يستغرب من مثله، ولكن الذي يستغرب فعلاً أن الخليفة قَبِل هذه الأفكار المخجلة، وذلك كما أشار عليه الوزير الفاسد حتى لا يثير حفيظة التتار؛ وليثبت لهم أنه رجل سلام ولا يريد الحروب!! لقد قام الخليفة فعلاً بخفض ميزانية التسليح، وقام أيضًا بتقليل عدد الجنود، حتى أصبح الجيش العباسي المسلم الذي كان يبلغ عدده مائة ألف فارس في آخر أيام المستنصر بالله والد المستعصم بالله وذلك في سنة 640هـ/ 1242م، أصبح هذا الجيش لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط

في سنة 654هـ/ 1256م!!
وبدراسة مسرح العمليات وجد هولاكو أن طائفة الإسماعيلية الشيعية التي تتمركز في الجبال في غرب فارس وشرق العراق سوف تمثِّل خطورة على الجيش التتري، هذا إضافةً إلى ثأر قديم كان بين التتار والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابنًا من أبناء جنكيزخان اسمه (جغتاي)، وذلك أيام حملة جنكيزخان على فارس منذ أكثر من ثلاثين سنة. كل هذا دفع التتار إلى العزم على التخلص من الإسماعيلية نهائيًّا، وصدرت الأوامر من قراقورم بمنغوليا بإبادة هذه الطائفة من على الوجود.
وهكذا تم في خلال سنة 655هـ/ 1257م استئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريبًا، ولم ينجُ منهم إلا الشريد الذي كان يعيش في الشام أو العراق، وبذلك أصبح الطريق آمنًا مفتوحًا إلى بغداد، وبدأت الجيوش المغولية الرابضة في فارس تزحف ببطء -ولكن بنظام- في اتجاه عاصمة الخلافة، ووضح للجميع أن اللحظات المتبقية في عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة، بل قليلة جدًّا[8].

الإشارات المرجعية:

١. د/مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى ص113.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية 13/150.
٣. د/مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى ص117.
٤. ابن الأثير: الكامل 10/494.
٥. السابق نفسه، الصفحة نفسها.
٦. د/فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ 1/187، 188.
٧. السابق نفسه 1/208-216.
٨. د/مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى ص151، 152.

https://murabet.com

المصدر:

موقع قصة الإسلام

الكلمات المفتاحية:

#التتار

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com